المقارنة بين الفنون
قراءة في قصيدة فن الشعر لهوراتيوس

أ.د. علي عبد التواب علي
كلية الآداب – جامعة القاهرة

Abstract

" Comparison of Arts in Horace's Ars Poetica "

Throughout history the art of painting and the art of poetry have been developing next to one other in a close relationship. It can be argued that a painter and a poet have much in common in terms of creating art. Both are creating images representing ideas, emotions or personal expression of thoughts and opinions. They use similar devices. The painter uses a brush to convey his message on canvas on the form of visual image, as well as a poet uses a pen or voice to form words which will produce a literary text.

I based my work on the concept of Horace's phrase *" ut pictura poesis "* , which can be literary translated as *" as is painting, so is poetry".* This argument was based on an analogy between the art of painting and poetry introduced by Horace, who sees these two arts sisterly related. The origins of this theory date back to classical philosophers such as Simonides and Aristotle.

ملخص البحث

إن من يقرأ قصيدة فن الشعر لهوراتيوس يدرك من الأبيات الأولى أن من بين الرسائل العديدة التي يريد أن يوجهها ذلك الشاعر الناقد أن هناك قواسم مشتركة تجمع بين الفنون، ولهذا فإنه كلما أراد أن يوجه نصيحة للشعراء ضرب لنا مثالاً لفنان فاشل في أي فن آخر، مثل فن التصوير أو النحت أو الخزف أو الموسيقى. في مطلع القصيدة على سبيل المثال يتحدث عن قضية التناغم في الفن وقضية حرية الإبداع، أو بمعنى آخر هل يجوز للفنان أن يسئ استخدام الحرية التي يتمتع بها الفنان في إنتاج عمل فني لا يتسم بالتناغم، فالقصيدة غير مترابطة الأجزاء تشبه الصورة غير متناغمة الأجزاء، وسوف تكون عرضة للسخرية والنقد مثلما حدث مع صورة الفنان الفاشل الذي رسم صورة تجمع بين وجه امرأة حسناء مع عنق جواد وجسد طائر ذي رياش زاهية الألوان وذيل سمكة سوداء. وفي منتصف القصيدة يقول هوراتيوس جملته المشهورة إن القصيدة تشبه الصورة ut pictura poesis ، ثم يعقد مقارنة بين القصيدة والصورة.

استهل هوراتيوس قصيدته المعروفة باسم "فن الشعر" بالحديث عن قضية من أهم قضايا النقد الأدبي في كل العصور وهي "حرية الإبداع" ، حيث يفترض أن فنان فاشل قام برسم لوحة فنية تتسم بعدم التناغم، فقد رسم مخلوق له وجه امرأة حسناء، وعنق جواد وجذع طائر له رياش متعددة الألوان، وينتهي ذلك المخلوق بذيل سمكة داكنة اللون وبشعة المنظر. يدعو ذلك الفنان الأصدقاء ليشاهدوا لوحته الفنية، وهنا يتساءل هوراتيوس:

" أيها الأصدقاء ، هل يمكنكم أن تمسكوا عن الضحك إذ دُعيتم لرؤيتها؟" ٥

هنا يقارن هوراتيوس بين هذه اللوحة الرديئة التي لا تتسم بالتجانس بين عناصرها وبين العمل الأدبي الذي يحتوي على أفكار وعناصر غير متناغمة حيث يقول:

Credite, Pisones, isti tabulae fore librum
persimilem, cuius, uelut aegri somnia, uanae
fingentur species, ut nec pes nec caput uni
reddatur formae.

صدقونى يا آل بيسو، فإن الكتاب سيكون وثيق الشبه
بتلك اللوحة ، الكتاب الذى يحتوى على رؤى غير متناسقة ،
مثل أضغاث أحلام المريض ، وبالتالى فإن القدم و الرأس قد لا
ينتميان إلى ذات الشكل الواحد. (قد تقول)"

لقد كان هوراتيوس موفقاً إلى أبعد الحدود عند استخدامه لكلمة species (رؤى) التى يشير معناها إلى العناصر التي تحتويها اللوحة المرسومة ، وأضغاث الأحلام التى يراها المريض فى نومه ، والصور والأخيلة والرؤى التى تحتويها قصيدة الشعر. ومن الناحية اللغوية نتبين رغبة هوراتيوس في المقارنة بين فن الشعر وفن التصوير من خلال استخدامه للصفة persimilem (وثيق الشبه) في وصف التشابه بين العمل الأدبي librum واللوحة tabulae التي رسمها الفنان الفاشل؛ كما استخدم هوراتيوس حرف الربط الدال على المقارنة uelut.

من منطلق هذا المدخل يتقدم الشاعر إلى قضية حرية الإبداع، إذ إن أحد من شاهدوا الصورة يستنكر ضحك الآخرين عليها ويقول إنه كفنان له مطلق الحرية في الربط بين عناصر غير متجانسة:

…….." Pictoribus atque poetis

quidlibet audendi semper fuit aequa potestas ." 10

..... (قد تقول) " لقد كان للرسامين

وللشعراء على الدوام قدرة متساوية فى المجازفة بتناول أى شىء ". ١٠

وهكذا بدت نوايا هوراتيوس في المقارنة بين فن الشعر وفن التصوير من خلال مجاورة كلمة الشعراء poetis إلى جوار كلمة الرسامين Pictoribus، وتأكيده على حقهم في الإبداع، ولكنه يصف ما فعله هذا الرسام بأنه مجازفة audendi ، لأنه يقدم أي شيء يشاء quidlibet دون أن يراعي أن أولى قواعد الفن هي تجانس العناصر المكونة للعمل الفني. ولا يعني هذا أن هوراتيوس يرفض حرية الإبداع، ولكنه يرى أن الحرية لابد أن يكون لها ضوابط لكي تتحقق الأهداف المرجوة من الفن.

يجمع هوراتيوس بين فن الشعر وفن التصوير مرة ثانية في معرض حديثه عن الشعراء الشبان الذين تدربوا في مدارس البلاغة على تناول موضوعات بعينها فأصبحوا لا يجيدون سواها، مثل وصف أحراش الربة ديانا، أو وصف انسياب مياه الجداول المتعرجة بين المروج، أو وصف قوس قزح؛ ولأن هؤلاء الشعراء لا يجيدون سوى هذه الموضوعات كانوا يقحمونها في كل قصائدهم حتى لو كان الموضوع لا يتعلق بها. يقارن هوراتيوس ما يفعله هؤلاء الشعراء بما فعله رسام معاصر أتى إليه ملاح وطلب منه أن يرسم له صورة مقابل أجر، بحيث تصور اللوحة كيف أن سفينته تحطمت وأنه أخذ يسبح ويقاوم الأمواج إلى أن تمكن من النجاة وبلوغ الشاطئ، لكن هذا الرسام لا يجيد سوى رسم أشجار السرو، فيعرض

على الملاح أن يضع له في الصورة شجرة سرو، وهكذا علق هوراتيوس على سلوك الشعراء متواضعي المستوى قائلاً :

" لكن هذا لم يكن الموضع المناسب لمثل هذه الأشياء. ولعلك تعرف أيضاً كيف ترسم شجرة سر. ولكن ما فائدة ذلك ، إذا كان المراد رسمه ، نظير مبلغ من المال ، هو رجل يسبح وهو يائس نحو الشاطىء بعد أن تحطمت سفينته ؟ "

ثم يضيف هوراتيوس بأن الجهلاء بأصول الفن لأنهم يضعون الشيء في غير موضعه تكون النتيجة كارثية، وفي هذا الصدد يضرب مثالاً بالخزاف الذي لا يتقن عمله:

" وعند الشروع فى صنع قارورة ، فلماذا تخرج زهرية من العجلة أثناء دورانها؟"

وينتهي إلى أن الدرس الأول في الفن، أي في كل الفنون، أن يتسم المنتج النهائي بالتناغم بين أجزائه، لكي يتحقق الهدف منه:

" وخلاصة القول ، فليكن أى شىء تشاء ، طالما أنه يمثل كيان واحد ومترابط. "

يعود هوراتيوس إلى الربط بين فن الشعر وفن الرسم مرة أخرى حين يعدد الأخطاء التي يقع فيها الشعراء والأدباء، فمن يرغب أن يكون أسلوبه يصبح غامضاً، ومن يرغب في الأسلوب الجزل يصبح طناناً، ومن يرغب في الابتعاد عن الرتابة يخطأ في تناوله لموضوعات لا تقبلها الطبيعة، وهنا ينتقل إلى فن التصوير بالفرشاة باعتبار أن التصوير بالفرشاة والألوان يماثل التصوير بالكلمات:

" وهناك من يرغب فى أن يغير فى موضوع واحد رتيب مخالفاً بذلك الطبيعة ، كأن يرسم الدولفين فى الغابات ، والخنزير البرى فى أمواج البحر، لو كان الفن غائباً ، فإن الحرص على تفادى الخطأ البسيط يقود إلى الوقوع فى خطأ جسيم."

يعود هوراتيوس إلى المقارنة بين الفنون، ولكن في هذه المرة بين الشعر وفن النحت، وذلك عند تناوله لقضية هامة في الفن وهي الجمال الجزئي والجمال الكلي، فإن أردنا أن نصف عملاً فنياً بأنه جميل لابد أن يكون كل أجزاءه جميلة، وليس جزء واحد فقط، فقد كان في روما حداد يصنع من البرونز تماثيل من المعدن، إذا نظرت لخصلات الشعر أو الأظافر تجدها جميلة وجيدة الصنع، لكن العمل في مجمله ليس بالجميل، وهكذا الأديب قد يكتب أجزاء جميلة، ولكن العمل في مجمله ليس جميلاً :

" بالقرب من مدرسة أيميليوس سيصنع حداد بالغ
السوء من البرونز أظافر اليد ، وسيحاكى خصلات الشعر الناعمة .
فى كيان واحد متناغم . بالنسبة لى ، فإننى إن رغبت فى تأليف أى شىء ،٣٥
لكن العمل فى مجمله سيكون غير مقنع ، وذلك لأنه سيجهل كيف يضع أجزاءه
فإن رغبتى فى أن أكون مثل هذا الرجل أقل من رغبتى فى أن أحيا بأنف
معوج ، مع أننى أجذب الأنظار إلىَّ بعيناى السوداوين وشعرى الأسود.
فيا من تكتبون ، تخيروا موضوعاً يكافىء قدراتكم ،
وتدبروا ملياً : ما ترفض عواتقكم حمله ،
وما تطيق حمله . فمن يختار موضوعه وفق قدراته ٤٠
فلن يعوزه الأسلوب ولا رونق الترتيب."

يقول هوراتيوس إنه لا يوجد عمل أدبي كامل، فلابد من وجود قدر من الخطأ، لكن هناك أخطاء لا يمكن أن نغفرها للمؤلف، فالأخطاء البسيطة فقط هي التي يمكن أن نتجاوز عنها، وهنا يضرب المثال بفن الموسيقى فالعازف لا يمكن أن يصدر النغمة نفسها، وكذلك فإن الرامي لا يصيب الهدف في كل مرة:

" على أية حال فإن هناك الأخطاء التى لا نريد أن نقع فيها :
إذ إن وتر القيثارة لا يصدر دائماً الصوت الذى ترغبه اليد والعقل ،
فعندما تحاول إصدار صوتاً ثقيلاً كثيراً ما يصدر صوتاً حاداً ،
كما أن القوس لا يصيب دائماً الهدف الذى يصوب نحوه.
لكن عندما يبدو أن فى القصيدة الكثير من الفقرات الجميلة ، فإننى لن أتأذى
من وجود بعض العيوب ، التى يتسبب فيها الإهمال ، أو أن الطبيعة البشرية
بما فيها من ضعف لم تنجح فى تحاشيها. فما هى حقيقة الأمر إذن ؟"

يواصل هوراتيوس مناقشته لنسبة الخطأ المسموح بها في العمل الفني، والنسبة التي لن نسمح بها أبداً، ومع المناقشة يواصل مقارنة فن الشعر بفن الموسيقى حيث يقول إن الشاعر الذي يصر على الخطأ مثل شاعر الإسكندر الأكبر خويريلوس الذي لا يحسن قرض الشعر، فهو مثل عازف القيثارة المصر على العزف الرديء:

" كما أن الناسخ لا نلتمس له العذر لو أنه وقع باستمرار
فى نفس الأخطاء ، رغم تحذيرنا إياه ؛ وكما أن عازف القيثارة ،
الذى يخطىء دائماً فى العزف على نفس الوتر ، يضحك الناس منه :
فإن الشاعر الذى يخطىء كثيراً ، هو من وجهة نظرى خويريلوس آخر ،
الذى أثنى وأنا أضحك على بيتين أو ثلاثة أبيات جيدة لديه؛

Vt scriptor si peccat idem librarius usque,
quamuis est monitus, uenia caret, et Citharoedus
ridetur, chorda qui semper oberrat eadem,
sic mihi, qui multum cessat, fit Choerilus ille,
quem bis terque bonum cum risu miror;

يتضح من مفردات هوراتيوس في هذه الفقرة حرص هوراتيوس على المقارنة، " مثلما أن الناسخ Vt scriptor "، هكذا فإنه بالنسبة لي sic mihi .

ومن هذه المقارنة بين الشعر والموسيقى يصل هوراتيوس إلى ذروة المقارنة بين الفنون في عبارته الشهيرة ومقارنته الأبرز بين قصيدة الشعر واللوحة الفنية حيث يقول:

Vt pictura poesis; erit quae, si propius stes,
te capiat magis, et quaedam, si longius abstes;
haec amat obscurum, uolet haec sub luce uideri,
iudicis argutum quae non formidat acumen;
haec placuit semel, haec deciens repetita placebit. 365

" إن القصيدة مثل الصورة : فهناك صورة تجذب انتباهك بشدة ،
إن وقفت على مقربة منها ؛ وأخرى تعجبك إن وقفت بعيداً عنها .
تلك الأخيرة تحب المكان المعتم ، أما الأولى فترغب فى أن تُرى فى النور ،
وذلك لأنها لا تخشى النقد اللاذع للناقد ؛ تلك الأخيرة تبهجك مرة
واحدة فقط ، أما الأولى فستبهجك بزيارتها عشر مرات ٣٦٥

القصيدة إذن مثل الصورة، Vt pictura poesis ، فالقصيدة الجيدة لا تخشى نقد النقاد وتحب أن يقرأها الجمهور مرات عديدة، وفي كل مرة تبهج القراء، فهي مثل الصورة الجميلة التي تحب أن يسلط عليها الضوء فهي لا تخشى النقد، ويذهب لمشاهدتها الجمهور عشر مرات، أما القصيدة المتواضعة فيقرأها الناس مرة واحدة، وهي مثل الصورة غير الجيدة التي تفضل الأماكن المعتمة لكي لا يلحظ أحد عيوبها، وتريد من الجمهور أن ينظروا إليها من بعيد، ويكفي للمرء أن يذهب لمشاهدتها مرة واحدة.

والحق إن هوراتيوس قد اقتبس عبارته الخالده هذه أي " القصيدة مثل الصورة " من الشاعر الغنائي سيمونيديس الذي قال:

" إن القصيدة هي صورة ناطقة، والصورة هي قصيدة صامتة"
(Plutarch De Gloria Atheniensium 3.346f.)

وإننا نجد نفس المعنى عند كبار الفنانين فهذا ليوناردو دافنشي يقول :

" الرسم هو قصيدة يُرى ولا يُسمع، والشعر هو رسم يُسمع ولا يُرى "

يستمر هوراتيوس في مقارناته بين الفنون فهو يرى أن للفن وظيفة سامية وهي الرقي بالشعوب وإبعادهم عن العنف فيميلون إلى التحضر، وهنا يقارن بين ما فعلته أشعار أورفيوس وألحان قيثارة أمفيون :

" روع أورفيوس المقدس وترجمان الآلهة البشر الذين
عاشوا فى الغابات من سفك الدماء ومن الحياة البرية،
ومن هنا قيل إنه روض النمور والأسود المفترسة .
وقيل أيضاً أن أمفيون، مؤسس مدينة طيبة ،
إنه حرك الأحجار بصوت قيثارته وقادها إلى حيث يريد ٣٩٥
الساحر بدعائه."

وأخيراً يربط هوراتيوس بين فن الشعر وفن الموسيقى عند تناوله لأهمية وجود الموهبة لدى الفنان، ولكن الموهبة لابد من تنميتها بالدراسة والتدريب، ويتعجب من أن أثرياء الرومان يدعون أنهم شعراء بقوة مالهم، ويجبرون الفقراء على التصفيق لهم:

" ..... والزامر الذى يعزف فى الألعاب
البيثية، تدرب على العزف أولاً وهو يرتعد خوفاً من معلمه." ٤١٥

وفى عصرنا هذا يكفى للمرء أن يقول : " إننى أكتب قصائد رائعة ؛"

ومما سبق يمكننا القول إن من أهم الرسائل التي أراد هوراتيوس أن يرسلها إلى الجمهور الروماني أن القضايا التي تتعلق بفن الشعر هي ذاتها التي تتعلق بباقي الفنون، فالفنان أو الشاعر لابد أن يتمتع بحرية الإبداع، ولكن بضوابط؛ وأن الفن الجيد هو الذي يتمتع بالتناغم بين الأجزاء المكونة له؛ وأن الفنان لابد أن يتمتع بالموهبة، وهذه الموهبة لابد من صقلها بالدراسة والتدريب؛ وأن للفن رسالة وهي إدخال السرور إلى النفس وإمتاع الجمهور وإفادتهم وتقويم شخصيتهم.

هذه كانت رسالة عابرة وجهها هوراتيوس في ثنايا قصيدته ضمن العديد من الرسائل الكثيرة التي تحتويها قصيدة فن الشعر.